

استراتيجيات السيطرة في المجتمع الغربي المعاصر بين هربرت ماركيوز وميشال فوكو

Strategies of Control in Contemporary Western Society, between Herbert Marcuse and Michel Foucault.

د. حدة بعنون⁽¹⁾ * د. حياة مشاط⁽²⁾

⁽¹⁾ كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، قسم الفلسفة، جامعة البويرة، الجزائر،

h.banoun@univ-bouira.dz

⁽²⁾ كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، قسم الفلسفة، جامعة البويرة، الجزائر،

h.mechat@univ-bouira.dz

تاريخ الاستلام: 2025/10/12؛ تاريخ القبول: 2025/11/26؛ تاريخ النشر: 2025/12/30

ملخص:

درس ماركيوز آليات السيطرة والهيمنة في المجتمع الغربي المعاصر مؤكداً أن التقنية تحولت من مجرد أداة في متناول اليد إلى أداة للسيطرة على الطبيعة والإنسان على حد سواء لأن التقنية الحديثة في نظر ماركيوز تمارس قمعا كليا على الفرد وهذا القمع يتم باسم العقل ولأول مرة في تاريخ الإنسان يصبح القمع معقولا ومقبولا بل ويدافع عنه ضحاياه أنفسهم،

وحدث هذا نتيجة الإمكانيات الضخمة التي يوفرها المجتمع الصناعي المتقدم بجهازه الإنتاجي الذي لم يقضي على الندرة فقط، بل خلق للإنسان حاجيات جديدة مما عزز صلته بالجماهير التي لا ترى فيه إلا نظاما جديرا بتحقيق الرفاهية للجميع، لذا دعا ماركيوز يساره الجديد إلى الثورة وقلب الأوضاع لكنه انتهى فيما بعد انتهى نهاية خيالية. أما ميشال فوكو فقد ذهب إلى ما هو أبعد، اهتم فوكو بالجسد وتقنيات ترويضه وأكد أن الإنسان الغربي الحديث يتعرض للتدجين والمراقبة والضبط من لحظة ميلاده إلى وفاته.

كلمات مفتاحية: المجتمع الصناعي الحديث؛ المعرفة؛ السيطرة؛ القوى اللاشخصانية.

Abstract:

Marcuse studied the mechanism of control and domination in contemporary Western society, stressing that the technique has turned from a mere tool at hand a tool for controlling nature and man alike, because modern technology, in Marcuse's view totally represses the individual. This repression is carried out in the name of reason. For the first time in human history, repression becomes reasonable and acceptable, and even defended by its victims themselves.

This happened as result of the huge potential provided by the advanced industrial society with its productive apparatus. It eliminated scarcity and created new needs for man, and this strengthened the relationship with the mass, who only see in it a system worthy of achieving well-being for all. Therefore, Marcuse called on his new left to revolution and reserve the situation, but it later ended in an imaginary end. Michel Foucault went further and took care of the body and its tamig techniques and stressed that modern Western man is subjected to domestication, monitoring and control from his birth to his death.

Keywords: Control; Impersonal forces; Knowledge; Modern industrial society

مقدمة:

لقد كان ماركيز يؤمن على طريقة ماركس بأن السلطة، تتركز في يد طبقة اجتماعية معينة تمارس سلطة القرار وسلطة الاستخدام الجيد لقوى الإنتاج عبر جهاز الدولة، أما ميشال فوكو "MICHEL FOUCAULT" نفى أن تكون السلطة مرادفة لمعادلة الدولة وإن كان لا يعزل الأولى عن الثانية، فالسلطة عند فوكو منتشرة في كل مكان، وهي تخترق جسم المجتمع من أقصاه إلى أقصاه وهذا الحضور الكلي للسلطة يعني به أن هذه الأخيرة تنتج ذاتها باستمرار في كل مكان؛ ومثال ذلك علاقة الأب بأفراد عائلته، وعلاقة الأستاذ بالتلميذ، وعلاقة الحاكم بالمحكوم. ولكن نحن لا ينبغي أن نفهم من هذا أن ميشال

فوكو يعارض التفسير الماركسي للسلطة كما لا ينبغي أن نفهم أيضا أن التفسير الذي قدمه تكملة لما أنتت به الماركسية، لأن فوكو يعترف تماما بالسلطة المركزية التي تحدث عنها ماركس وماركيوز من بعده ولكنه أعطى الأهمية لتلك التقنيات المتعلقة بالجسد والتي تدخل ضمن المشروع الانضباطي للحضارة الغربية. ويبدو أن هذا الشيء لم يوضحه ماركيزوم جيداً رغم مطالعته على كتب فرويد والتحليل النفسي ذلك لأن ماركيزوم ركز اهتمامه في دراسته الانتقائية لفرويد على مبدأ الإنتاجية التي لم تسد فقط الندرة، بل حققت الوفرة في المنتوجات ومبدأ القمع المضاعف، حيث رأى ماركيزوم أن الإنسان في الحضارة الصناعية الحديثة يتعرض للقمع الزائد، فكرياً، نفسياً وجسدياً، إذ أصبحت رغباته تفرض عليه كلية من الخارج عن طريق الإشهار الذي يقوم على مبدأ تنظيم النقص الذي أوجدته مصالح طبقة معينة، كما أن جسده يتعرض للإفناء نتيجة العمل المتواصل الذي يشمل حتى أوقات الفراغ، من خلال وجود الأجهزة المختلفة: التلفاز، الانترنت وغيرها...

يعتبر ماركيزوم العمل استلاب واغتراب وفسر الحضارة الصناعية الغربية الحديثة تفسيراً سلبياً، أما فوكو حين يتحدث عن آليات إخضاع الجسد نفى أن تكون السلطة مساوية للعنف والإخضاع والهيمنة، فهو لا يعتقد أن الدور الوحيد للدولة هو العنف أي ما هو سلبي بل يعطي للسلطة دوراً إيجابياً، دور الإنتاج، دون إهمال العنف كممارسة وكعمل تلجأ إليه السلطة في بعض الأحيان

رأى فوكو أن المجتمع الحديث هو مجتمع الضبط والمراقبة لأن السلطة المركزية سعت جاهدة إلى فرض شبكة سلطوية أخطبوطية تربط أصحاب القرار المركزي بأدنى فرد داخل مجتمع البورجوازية، ولتحقيق هذا الهدف خلقت عدة مؤسسات منها: السجن المدرسة، المصنع، الثكنة ... المستشفى إلى غير ذلك من المؤسسات التي تمارس عبرها السلطة، فإذا كانت الدولة الملكية لم تستطع أن تمارس سلطتها بنفس الشدة في جميع أطرافها بحكم اتساع رقعتها الجغرافية فإن الدولة الحديثة خلقت ميكانيزمات عديدة لتضبط بها المجتمع وهذا الوضع يجعل حلم ماركيزوم الذي يؤمن بالثورة والاستئصال الجذري للأنظمة الشمولية الحديثة متعذراً من هذه الزاوية نتساءل عن الاختلاف القائم بين مفهوم السلطة عند هربرت ماركيزوم وميشال فوكو؟ ما هي آليات الضبط والمراقبة في المجتمع الغربي المعاصر؟ وماهي البدائل التي قدمها الفيلسوفان لتجاوز لحظة الانسداد

في المجتمع الغربي المعاصر؟

تكمن أهمية الدراسة في كونها تعالج أحد أعمدة الفكر النقدي المعاصر وهو هربرت ماركيز الذي استطاع أن يكشف الوجه الآخر للحضارة الغربية التي تخفي تحت غطاء العقلنة بعدا لاعقلانيا ولد إنسان البعد الواحد إنسان منتج مستهلك بالدرجة الأولى كما تتناول نظرية ميشال فوكو حول السلطة واستراتيجيات الضبط والمراقبة في المجتمع الغربي الحديث والمعاصر مقدما طرحا مخالفا لذلك الذي أتى به ماركيز ليبين أن التغيير الجذري ليس سهلا وأن السلطة ليست مركزية بل هي شبكة أخطبوطية تتوزع على جسد المجتمع. نحاول من خلال هذه الدراسة أن نرصد نقاط التداخل والتنافر بين التحليل الاجتماعي الماركيزي والرؤية النقدية الاجتماعية الفوكوية وبهذا يكون المنهج التحليلي المقارن الانسب لتحليل الإشكالية المطروحة.

نقد المجتمع الصناعي المعاصر عند هربرت ماركيز:

نقد ماركيز المجتمع الصناعي الحديث بشقيه: الاشتراكي والرأسمالي فإن كان الأول يعاني من البروقراطية القاتلة فإن الثاني يقوم على الاستغلال والألينة والفرد حسب ماركيز يعيش مغتربا في كلا النظامين ويقول في هذا: " ...يمكن إطلاق فلسفة التقنيات الأوتوقراطية على الفلسفة التي تعتبر المجموع التقني مكانا تستخدم فيه الآلات للحصول على القوة"⁽¹⁾ كانت الثورة العملية التي أعلن عنها كوبرنيكوس تعبر عن أمل الإنسان الحديث في تجسيد سعادته الدنوية، إلا أن هذا الحلم سرعان ما تبدد لأن التقنية تحولت من أداة تخلص الإنسان من جل العوائق الطبيعية التي تكبله إلى خطر يهدد وجوده، إذ انفلتت من يد الإنسان وأصبحت قوة غريبة، فتاكة لا يمكن التحكم فيها يرى ماركيز أن الثورات العلمية في الماضي كانت ثورات المعرفة وقد كانت تحدث تغيرات تدريجية بتطويرها للوسائل التقنية وبتكليف العقلية التديجي معها، أما اليوم أصبح تقدم العلم مقرون مباشرة بالعامل التقني بعد أن كانت التقنية وسيلة لمحاربة الطبيعة وقساوتها، أصبحت في العصر الحديث غاية في حد ذاتها وبهذا ظهرت علاقة جديدة بين العلم والتقنية وبين الوجود الاجتماعي ونجد لوفيفر يقول: " إن التقنية لم تعد تعتمد إلى وساطة فكر يسيطر

(1) - هربرت ماركيز، الإنسان ذو البعد الواحد، تر: جورج طرابيشي (ط4، دار الآداب للنشر، بيروت- لبنان، 2004، ص191

عليها ولم تعد تضطلع بها ثقافة تضفي عليها معنا ما.⁽²⁾ إن خطر التكنولوجيا الذي نهنا إليه ماركيزو يكمن في ارتباط هذه الأخيرة ارتباط وثيقا بالجهاز السياسي الذي يضفي صفة عقلية على ما يعانيه الإنسان من غياب الحرية وهي تدعم بذلك إيديولوجية تعسفية استبدادية واستغلالية احتوت الفرد، بالتالي أصبح غياب الحرية في العصر الحديث لا يشكل لب المشكلة السياسية لأن الآلة التي أوجدها الإنسان لترويض الطبيعة وتسخيرها لصالحه بلغت مرحلة أضحى فيها التطور التكنوقراطي يستغل الإنسان ذاته.

لذا اقترح ماركيزو فكرة التغيير الجذري الذي يتم عن طريق المواجهة العنيفة بين اليسار الجديد والمؤسسات المهيمنة التي توجه التكنولوجيا إلى أهداف إيديولوجية، فما هي الفئات التي تجسد العمل الثوري عند هربرت ماركيزو ؟ وماهي الاستراتيجية التي يقترحها لتجاوز أزمة العقلانية الأداتية في المجتمع الصناعي المعاصر ؟

التغيير الجذري بين الحقيقة والبيوتوبيا

حاول ماركيزو أن ينفذ إلى فهم استراتيجيات السيطرة في المجتمع الصناعي المعاصر مستندا إلى نظرية ماركس في الصراع الطبقي، حيث رأى أن الماركسية نظرية مطواعة لم يتجاوزها الزمن وبإمكان تطبيقها على ظروف القرن العشرين شريطة إدخال بعض التعديلات عليها، وهذا ما قام به فعلا حين استبدل الصراع الطبقي الماركسي بين طبقة البروليتاريا والطبقة البورجوازية بطبقات أخرى همشها التاريخ في القرن العشرين وأطلق عليها اسم اليسار الجديد.

رأى ماركيزو أن البروليتاريا التي قادت الطليعة في القرن التاسع عشر وخاضت غمار الثورة البلشفية سنة 1917 م لم تعد تمثل القاعدة الثورية للقرن العشرين لأنها مندمجة كلية في تروس الآلة الصناعية التي استطاعت أن تخدر وعيها عن طريق العقلنة اللاعقلية التي أفرزها النظام الصناعي الحديث بجهازه الإنتاجي الذي لم يحسن فقط مستوى معيشة العمال، بل حقق الوفرة لشرائح واسعة من المجتمع، لذا رأى أنه لابد من وجود فئات مهمشة جديدة لم تستطع الآلة الصناعية الحديثة أن تخدر وعيها وهذه

(2) - ينظر فريق من الاختصاصيين، المجتمع والعنف، تر: إلياس زحلاوي مراجعة أنطوان مقدسي (ط3)، المؤسسة الجامعية للنشر، 1993)، ص 36.

الفئات سرعان ما تعي ظروف عبوديتها وتثور والفئات المقهورة في القرن العشرين يجسدها ماركيز في: المنبوذين، المطاردين، المهمشين، الهبيز، القيتو في أمريكا، العاطلين عن العمل والعاجزين عنه فهذه الجماعات حسب ماركيز تعيش خارج اللعبة الديمقراطية وتمثل قوة ثورية لأنها تعيش على هامش التاريخ، فالهبيز والقيتو والسود يعانون الاضطهاد والتمييز العنصري، لذا يعتبر ماركيز هذه الفئات ثورية حتى وإن لم يكن وعيها ثوريا، لأنها لا تتمتع بالسلع الاستهلاكية التي ينتجها الجهاز الصناعي المتقدم ولأن الرأسمالية عجزت عن الوصول إلى الأكواخ والمنازل القصديرية، فاقتلالت التوازن بين الغنى الفاحش لأصحاب الامتيازات والفقر المدقع لهذه الشريحة جعلها تثور ضد هذا النظام الذي يكرس العبودية في ظل الوفرة الانتاجية⁽³⁾ كما يضيف ماركيز إلى يساره الجديد طبقة المثقفين ممثلة بالطلبة وبعض التابعين لحركة الحقوق المدنية والكتاب والشعراء..الذين لا يملكون امتيازات مرموقة في الولايات المتحدة بالإضافة إلى حركة تحرر المرأة وبلدان العالم الثالث⁽⁴⁾. لكن فيما بعد يصل ماركيز إلى نتيجة تشاؤمية أين أكد على أن السبيل إلى التغيير في الوقت الحالي مسدود لأن يساره الجديد فتي لا يستطيع أن يواجه النظام الرأسمالي الذي يمتاز بمناعة كبيرة، لذا اتجه إلى البديل السلمي أين دعا إلى التوجيه العقلي للصناعة كما دعا الثورة عن طريق الفن، إذا بإمكان هذا الأخير في نظر فيلسوفنا أن يوقض الوعي لدى الأفراد ويبقى المطلب الاساسي للفن عند فيلسوفنا هو نزول الفنان إلى الواقع ليذود عن القضايا العادلة.

جدلية المعرفة والسلطة عند ميشال فوكو:

وعلى خلاف ماركيز يؤكد ميشال فوكو أن كل المؤسسات التي تمارس السلطة لها مبرراتها التاريخية ويقول في هذا: " إن السلطة ليست غيبية كما يتوهم بعض المراهقين الصغار وبخاصة إذا كانت سلطة البورجوازية، بل هي أكبر سلطة وجدت في التاريخ وأكثرها وقاحة، فهي ذكية قادرة على تحييد خصومها بكل الطرق"⁽⁵⁾. ولكن السؤال المطروح هنا

(3) -Herbert Marcuse, Fin de l'utopie ,Paris, ed, Seuil,p 44

(4) - Herbert Marcuse, Vers la libération au –delà de l'homme unidimensionnel,traduit de l'Anglais par Jean Baptiste,Grasset,Paris,ed,Minuit,1969, p 43

(5) - هاشم صلاح ، ميشال فوكو فيلسوف القاعة الثامنة، (دار الطليعة للطباعة والنشر بيروت – لبنان)، ص36-

هو، كيف استطاعت السلطة أن تصبح شبكة أخطبوطية وما الذي ساعد على تكثيف حضورها بطريقة يعجز الإنسان عن الانفلات من قبضاتها ؟ إجابة هذا السؤال تكمن في تلك الجدلية التي أقامها فوكو بين المعرفة والسلطة ففوكو يجعل المعرفة تتماشى جنباً إلى جنب مع السلطة، إذ هناك علاقة جدلية تربط الأولى بالثانية، حيث يقول في هذا السياق : "...بعض المعارف تساهم في تكثيف حضور السلطة وتجديرها" (6). ونحن سنسرد أدنى مثال عن هذا يتجلى في علاقة الأستاذ المشرف بالطالب الباحث، حيث يمكن أن يرفض له أطروحته ويجبره على تغيير موضوع بحثه.

المعرفة حسب فوكو هي شكل من أشكال السلطة، فالطبيب أو العالم مثلاً لا يمكن أن يناقشهما إنسان عادي حول بعض المعارف والاكتشافات والمعادلات العلمية، مما يسهل تمرير خطاهما ويمارسان سلطتهما على الإنسان العادي وبنفس الطريقة يمكن أن يموّه الأفراد بعضهم البعض بحكم المعارف التي يمتلكونها، ففوكو وضع لنا هذا جيداً حيث استشهد، بما وقع (بيير ريفيير) (PIERRE REVIERE) الذي ارتكب جريمة قتل فظيعة، إذ اعتدى على أمه الحامل وأخته وأخيه ربما نظراً للعلاقة السيئة التي جمعت أبويه، حيث أراد هذا الشاب أن ينتقم لأبيه، مما دفعه إلى القيام بهذه "الجريمة يوم (03 جوان 1935م) ولقد حكم على بيير ريفيير بالإعدام، ثم بالسجن المؤبد وقبل إصدار الحكم كتب ريفيير اعترافاته وذلك بأمر من المحققين وبعد أربع سنوات من إصدار الحكم شنق " PIERRE REVIERE نفسه وغلق الملف" (7). وفي عام 1971م حصل فوكو على هذه الاعترافات ونشرها لكي يدين الطب النفسي الذي يحاول أن يلحق صفة الجنون "لريفيير، لكي يخفف من عقوبته وهنا فقط تظهر علاقة المعرفة بالسلطة حسب فوكو الذي قال: " إذا كان فعل القتل جنونياً، فإن القاتل عاقل ونص الاعترافات دليل على ذلك" (8). وخلص بهذا إلى نتيجة مخالفة لتلك التي أقرها أطباء التحليل النفسي الذين تناولوا بالفحص والتحليل شخصية بيير ريفيير وأصقوا له صفة الجنون.

(6) - محمد علي الكردي، نظرية المعرفة والسلطة عند ميشال فوكو، (دار المعرفة الجامعية الإسكندرية- مصر، دون تاريخ)، ص 147.

(7) - محمد علي الكردي المرجع السابق، ص 250.

(8) - المرجع نفسه، ص 251.

يربط فوكو أيضا بين السلطة والخطاب، لأن الخطاب يساهم في تشكيل العقلية الفردية ويخلق الحركية في المجتمع، لذا نجده يقول: "...إن إنتاج الخطاب في كل مجتمع هو في نفس الوقت إنتاج مراقب ومنتقي ومنظم..."⁽⁹⁾. فاللغة حسب فوكو في حد ذاتها هي سلطة الإخضاع ومن هنا يمارس خطاب المعلم في المدرسة سلطته على التلميذ، وخطاب الطبيب في المستشفى يمارس سلطة على المريض والجلاد في السجن أيضا يمارس سلطة على جسد المجرم. أما ماركيزوز حصر السلطة اللغوية أو سلطة الخطاب في وسائل الإعلام الجماهيرية التي تساعد على خلق الرأي العام والخاص، وغابت عنه نقطة أساسية هي: أن الخطاب أينما يكون يمارس سلطة على الأفراد سواء في المدرسة أو في المستشفى أو في الثكنة أو المصنع.

بعد أن حللنا لغز السلطة لدى ميشال فوكو سننتقل الآن إلى الميكانيزمات التي يعتمد عليها في بسط نفوذها وتكثيف حضورها.

ميكانيزمات السلطة عند ميشال فوكو:

يعرف فوكو جيدا أن السلطة لا تمارس إلا من خلال وجود بعض التنظيمات والمؤسسات التي تحدد سلوك الإنسان وتبني عقليته فإذا كان ماركيزوز يحصر آليات السلطة في العلم والتكنولوجيا التي توجهها القوى اللاشخصانية توجهها إيديولوجيا، بالإضافة إلى وسائل الإعلام الجماهيرية التي تقوم بنشر الدعايات والإشاعات لخدمة مشاريع الطبقة الحاكمة، فإن فوكو لا يركز على هذه الآليات، بل يذهب إلى شيء أبعد مما ذهب إليه ماركيزوز.

اهتم فوكو بالجسد وأولى له أهمية كبيرة فيرى أن الدولة البورجوازية الحديثة التي تأسست بعد الثورة الفرنسية 1789م تعرف جيدا أن الجسد يمكن أن نجعله مطوعا ويصبح قوة إنتاجية فعالة ولكن لا يتحقق هذا إلا من خلال إخضاعه لبعض التدريبات والتمرينات الناجعة، لذا أوجدت الدولة المؤسسات المختلفة كي تتحكم في سلوك الإنسان وتتبع خطواته من المهد إلى القبر.

(9) - السيد ولد أباه، التاريخ والحقيقة لدى ميشال فوكو، (ط1، دار المنتخب العربي للنشر بيروت- لبنان، 1994)، ص168.

يدرس فوكو مثلاً : مؤسسة السجن ويخلص إلى نتيجة مفادها أن: " السجن ليس مجرد آلية إخضاع، بل هو جهاز تحويل وعبر ترويض الجسد يتسنى للسلطة الانضباطية أن تصل إلى أبعد نقطة في السلوك اليومي وأن تحدث توجيهها خلقياً غايته تبرير وتشجيع العمل المنسق والحياة المنظمة"⁽¹⁰⁾.

درس فوكو مؤسسة السجن واهتدى إلى القول أن هذه المؤسسة لم توجد لغاية علاج المجانين والشواذ جنسياً، بل وجدت لتقضي على ظاهرة البطالة التي استفحلت لذا يعتبر الغرض الأول من العزل هو التخلص من الأجساد الضارة التي هي أشواك قد تضرر الآخر وتزعزع استقراره. ولكن بعد ظهور إيديولوجية الإنتاجية، تم تشغيل المساجين من أجل تحقيق الرفاهية. لذا رأى فوكو أن المجتمع تخلص من خطر البطالة بالسجن والحجز الذي هو ليس علاجاً ناجحاً، بل هو فاشل،... ولكن مبدأ العمل نفسه إن لم يكن إيجابياً ولّد وعياً أخلاقياً بالعمل هذا من جهة ومن جهة أخرى مؤسسة الحجز استدعت وجود الطبيب وتم عزل المرضى والمجانين عن بقية المسجونين⁽¹¹⁾.

يدرس فوكو مؤسسة السجن ويرى أن السجن يخضع لبرامج دقيقة حيث ينظم وقته ليل نهار، فالعزل عنده يقوم على مبدأين أساسيين: فن التوزيع ونظام التحكم"⁽¹²⁾.

فالأول يشير إلى : توزيع الأفراد في الأماكن ونتج عنه توزيع المهمات وتعمير الأماكن فالطبيب والمريض في المستشفى، الجندي في الثكنة، المعلم والتلميذ في المدرسة، المجرم والجلاد في السجن والعامل في المصنع ومن خلال هذا الاستخدام الأمثل للمكان والتوزيع الأفضل للوقت يعمل الجسد بطريقة رشيدة.

يعتقد فوكو أن نظم الضبط لا تتوقف على السجن فقط، بل هي الدعامة الأساسية التي قامت عليها الحضارة الغربية الحديثة، فإذا كان ماركيزوميشال يصف الحضارة الغربية الحديثة بالحضارة الصناعية ويرى أن مجتمعاتها هي مجتمعات الوفرة والندرة المختلفة باستمرار ويدعو شردمة من الأفراد الذين ينتمون إلى شرائح اجتماعية مختلفة للقيام بالثورة والتغيير الجذري فإن فوكو يؤكد على أن المجتمع الأوروبي الحديث يركز

(10) - السيد ولد أباه، التاريخ والحقيقة لدى ميشال فوكو، مرجع سبق ذكره، ص 248.

(11) - المرجع نفسه، ص 154.

(12) - محمّد علي الكردي، نظرية المعرفة والسلطة عند ميشال فوكو، مرجع سبق ذكره، ص 459.

على نظم الضبط التي تجعل الإنسان آلة "HOMME MACHINE" ويدخل ضمن ما يسميه فوكو « BIOPOUVOIR » الذي يهتم بحياة الناس عن طريق تحويل الجسد إلى آلة عن طريق ترويضه لتزيد من قدراته وتنتزع قواه، أما الجانب الثاني فيهتم بالجنس، إذ ينظم عملية التكاثر ويحصي عدد الوفيات والولادات ومراقبة المستوى الصحي والتعمير ويتم كل هذا حسب فوكو: "بواسطة مجموعة كبيرة من التدخلات والمراقبات الضابطة إنها السياسة الحيوية للسكان" (13).

إذن نلاحظ أن نظام الضبط والمراقبة يجتاح كل الأماكن والفضاءات، فالسياسة الحيوية للسكان تتبع الإنسان من الميلاد إلى الوفاة ويعني هذا: " اندماج الأشكال والإجراءات القانونية لتحويل السلطة من أداة استلاب وقمع كما أشارت إليه فلسفة ماركيز إلى أداة تنظيم وتكوين" (14).

لقد أقام فوكو علاقة وثيقة بين السلطة ومختلف المؤسسات الاجتماعية، حيث رأى أنه في عام 1656م أنشئ المستشفى العام في باريس بناء على القرار الملكي ولم يمضي على هذا شهر واحد، حتى "قبض على 1% من سكان باريس ووضعو فيه واعتبروا جميعا مجانين". ومن هنا يستنتج فوكو أن المستشفى ليس مؤسسة طبية استشفائية وقائية بل هي مؤسسة نصف قضائية، مؤسسة ملكية بورجوازية تسعى لغزل العناصر الضارة في المجتمع، فهي تدخل ضمن التقنيات السياسية التي تمارس سلطة الضبط والمراقبة .

الطبيب حسب ميشال فوكو يلعب دورا نصف قضائي وهو نقطة عبور بين السلطة والمجتمع من خلال معرفة صحة الأفراد ومن خلال تسجيل عدد المرضى والوفيات والمعافين أي: هو الذي يحدد المستوى الصحي للمجتمع.

نظم الضبط عند ميشال فوكو ليست حكرا على السجون، المستشفيات، المصانع والورشات فقط، بل تمتد لتشمل كل المؤسسات التي تسيطر الحضارة الغربية، فالمدرسة هي أيضا تخضع الفرد للانضباط عن طريق مبدأ الامتحان أو الاختبار، ونجد فوكو يقول في ذلك: "... بنفس الطريقة أصبحت المدرسة آلة للامتحان الدوري الذي يكثف حضور

(13)- الزاوي بغورة، مفهوم الخطاب في فلسفة ميشال فوكو، مرجع سبق ذكره، ص 241.

(14) - محمد علي الكردي، نظرية المعرفة والسلطة عند ميشال فوكو، مرجع سبق ذكره، ص 500.

السلطة في مهمة التعلّم" (15). فعن طريق الامتحان يختبر التلاميذ معارفهم ويقارنون نتائجهم مع بعضهم ولهذا يصبح الامتحان الوسيلة الوحيدة لتبرير رسوب البعض ونجاح البعض الآخر. وماركيوز من جهته أشار إلى أن الجامعة هي مؤسسة سياسية تتحكم فيها السلطة المركزية من خلال الدروس والبرامج التي تقدم للطلبة ودعا إلى تسييسها بسياسة مضادة حيث دعا الطلبة إلى تشكيل إتحاد معاد للسياسة القائمة. هكذا إذن تم تطبيع الجسد عبر مكانيزمات مختلفة تتوحد غاياتها في خلق عقلية متوافقة ومسالمة.

نقد المجتمع الغربي من منظوري ماركيزوفوكو:

بعد أن عرفنا السلطة والأماكن التي تمارس فيها عند ماركيزوفوكو وبعد أن تعرفنا على الآليات التي تعتمد عليها في الترهيب والترغيب ننتقل الآن إلى دراسة عقلية المجتمع الغربي لدى كل من الفيلسوفين.

إذا عدنا إلى صاحب النظرية النقدية الاجتماعية نجد أنه يصف المجتمعات الغربية الحديثة بأنها مجتمعات صناعية، لأنها تقوم على التكنولوجيا المتقدمة التي خدرت وعي الأفراد من خلال إيديولوجية الإنتاجية، فالملاحظ أن الجهاز الصناعي في العصر الحديث لم يسد فقط الحاجة، بل خلق الوفرة مما أدى إلى غياب البعد النقدي لدى الإنسان الغربي المعاصر وأصبح هذا الأخير يدافع بنفسه عن هذا النظام الذي يقيم به باستمرار. فالإيديولوجية الجديدة إذن استطاعت أن تحقق ما لم تحققه الأنظمة الشمولية القديمة، حيث قلمت أظافر أصحاب المقاومة وهذا عن طريق الخطاب الذي تنسجه حول تحقيق الرفاهية للجميع. التكنولوجيا هي عزاء الإنسان الغربي الحديث حسب ماركيزوفوكو وهي ميتافيزيقا جديدة تعد الفرد بتحقيق الحياة السعيدة وتنشله من دنيا التعاسة والشقاء. فالعقلنة اللاعقلية التي اتصف بها جهاز التصنيع الذي تديره القوى السياسية جعلت الفرد أعى يمشي إلى التلاحم مع السياسة المنتهجة.

يخلص ماركيزوفوكو في تحليله للإنسان الغربي الحديث إلى نتيجة مفادها أن: هذا الإنسان هو: "إنسان ذو بعد واحد" (16) ينحصر فكره في الإنتاج، الاستهلاك والتكاثر، وهو

(15)- Michel Foucault, Surveiller et punir naissance de la prison, (ed gaillimard ,1975), p188.

(16)- هربرت ماركيزوفوكو، الإنسان ذو البعد الواحد، مصدر سبق ذكره، ص13.

البعد الحيواني ولم يعرف أن سعادته تقوم على شقاء الشعوب المستضعفة في الكثير من بقاع العالم: في فلسطين، السودان، جنوب لبنان، أفغانستان، العراق... التي غزتها تلك القوى الع والتّي تمارس ظمى من خلال استحوادها على سلطة القرار في المنظمات الدولية مثل صندوق النقد الدولي، المنظمة العالمية للتجارة البنك الدولي ومنظمة الأمم المتحدة ومن خلال ممارسة حق الفيتو الذي هو تفريع للشرعية الدولية الأمريكية الأمبريالية .

أما ميشال فوكو فبحث عن كيفية تشكيل الذات الغربية عبر التاريخ من خلال تشكيل خطاب حول الجنون، السلطة وحول الرغبة ودرس من ثمة نظم الضبط والمراقبة من خلال المؤسسات المختلفة، فدرس مثلاً: مؤسسة السجن التي تقوم على مبدأ التوزيع الأحسن للأفراد في الأماكن والاستغلال الأمثل للوقت وهما المبدأان اللذان قامت عليهما الحضارة الغربية الحديثة ودرس استراتيجية السلطة التي تنغرس في كل مكان من جسد المجتمع ابتداء من الأب الذي يمارس سلطته على العائلة إلى المعلم الذي يفرض سلطته على التلميذ في المدرسة، إلى الطبيب الذي يمارس سلطته على المريض في المستشفى والقاضي والجلاد اللذان يمارسان سلطتهما في السجن على المجرم وفحسب فوكو الأمر لا يختلف سواء تعلق الأمر بالمصنع أو المدرسة أم بالثكنة فإن ثمة جهد يبذل من أجل توزيع الأجساد فيها وتأطيرها⁽¹⁷⁾.

المجتمع الغربي حسب فوكو هو مجتمع الضبط والمراقبة لذا يعتقد أن الإشكال الأساسي لا يكمن في صياغة التساؤلات الكبرى حول ميلاد الدولة وإنما "...الإشكال يتعلق بتحليل التقنيات الدقيقة للتربية والقواعد الدقيقة لتقويم السلوك البشري"⁽¹⁸⁾. مما يعني أن الدولة قبل أن تصنع مؤسسات القهر خططت لكيفية قيام عقلية الخضوع طوعاً لدى الفرد لذا يقول: "المجتمعات الأوروبية الحديثة التي ولدت بعد الثورة الفرنسية هي مجتمعات تدجين وتطبيع، مجتمعات امتثالية تهدف إلى التدخل في أعمال الإنسان ومراقبة تصرفاته من المهد إلى اللحد، من العمادة إلى القبر"⁽¹⁹⁾. ونفهم من هذا القول أن النظرية لم تنفصل أبداً عن الممارسة كما اعتقد ذلك ماركيزوز، بل النظرية خضعت لمحك

(17) - فريدريك غرو، ميشال فوكو، تر: محمد وطفه، (المؤسسة الجامعية للنشر بيروت- لبنان، 2008)، ص 85.

(18) - فريدريك غرو، ميشال فوكو، مرجع سبق ذكره، ص 86.

(19) - هاشم صلاح، ميشال فوكو فيلسوف القاعة الثامنة، مرجع سبق ذكره، ص 44.

التطبيق والتجربة.

فإذا كنا نعني بالنظرية جل الخطابات التي تهدف إلى إخضاع المجتمع من خطاب المعلم في المدرسة إلى خطاب رئيس الدولة. فالخطاب واللغة في حد ذاتهما سلطة وأينما توجد سلطة تقتضي تنفيذ الأوامر طاعة أو إكراها، فكيف لماركيزو إذن أن يبحث عن أسباب انفصال النظرية عن الممارسة في المجتمع الغربي الحديث ؟ فكل تطبيق في وقتنا الحالي يقتضي التنظيم المسبق، أما ثورة ماركيزو جاءت مخالفة لما دعا إليه، فهو دعا إلى الثورة دون أن يأتي بالبدل واستغنى عن طبقة العمال ولم يأت بطبقة أخرى مكانها ومازال يصمم على أنه ماركسي.

خاتمة

لقد استغرب ماركيزو من حال الإنسان الغربي الحديث الذي أضحى مشدوها، جامدا وهو ينظر إلى ذاته تغرب عنه شيئا فسيئا وتساءل عن سبب غياب البعد الثوري في هذا المجتمع، ثم بعدها أراد أن يكون قائد اليقظة الغربية وذلك من خلال صوغ نظرية ثورية يسند فيها عملية التغيير الجذري إلى شردمة من أفراد ينتمون إلى شرائح اجتماعية مختلفة وفي الواقع هذه الثورة التي تفتقد إلى التنظيم والتخطيط المسبق تنظم ضد نظام يعرف مناعة كبيرة وحصن نفسه بالتكنولوجيا المتقدمة والمتفوقة والملاحظ أن هناك تناقضا بين المعادلة الأولى والثانية وفوكو أثبت إثباتا قاطعا بأن المقاومة كي تقوم وكي تنجح يجب أن تكون متكافئة مع السلطة المضادة تماما. ويعني هذا أن فوكو لا يؤمن أبدا بالتغيير الجذري وبالمقاومة على طريقة ماركيزو ونعني يساره الجديد الذي لا يعتمد على أي إستراتيجية مضبوطة ولا تجمععه أي مصلحة مشتركة ولا ينحدر من طبقة واحدة، بل فوكو لا يؤمن أصلا بالطبقية كما هو الحال عند ماركس. وماركيزو فالمجتمع حسب: "ليس وحدة مقسمة إلى طبقتين، بل هو وحدة مقسمة إلى عدة أجزاء موزعة على الجسد الاجتماعي تخترقها السلطة كما أن ليس للسلطة مركزا محددا كذلك المجتمع لا يتحدد بطبقة معينة، بل بمجموع فئاته في مختلف المؤسسات التي تحكمها مختلف علاقات السلطة. لذا تتعذر مقاومة ماركيزو والدليل على ذلك لجوؤه إلى الفن كبديل للثورة وهو نهاية خيالية.

فلسفة ماركيزو خلقت في السماء حين دعت إلى الثورة الجذرية وهي لا تدرك أن الفرد

رغم تعرضه للاغتراب والاستلاب لا يستطيع التخلي عن ما أنجزته الحضارة الصناعية الحديثة، إنه وصل بجبل غليظ إلى تلك المؤسسات التي تمارس السلطة، فنحن لا نستطيع اليوم أن نتصور أبا يمنع ابنه عن الذهاب إلى المدرسة، كما يضحي من اللامعقول ترك المريض بمعزل عن المستشفى والمجرم خارج السجن، لأن هذه الظواهر تشكل خطراً على المجتمع فالجهل يقود إلى الهيمنة والمرض يبيد البشرية والجريمة تحول الحياة الإنسانية إلى كابوس فكيف للفرد أن يستغني عن هذه المؤسسات إذن؟

قائمة المصادر والمراجع

بالعربية:

1. صلاح هاشم ،ميشال فوكو فيلسوف القاعة الثامنة، دار الطليعة للطباعة والنشر بيروت – لبنان .
2. غرو فريدريك ،ميشال فوكو، تر:محمد وطفه، المؤسسة الجامعية للنشر بيروت- لبنان ،2008.
3. فريق من الاختصاصيين، المجتمع والعنف' تر: إلياس زحلاوي مراجعة أنطوان مقدسي، ط3، المؤسسة الجامعية للنشر، 1993 .
4. الكردي محمد علي ،نظرية المعرفة والسلطة عند ميشال فوكو، دار المعرفة الجامعية الإسكندرية- مصر، دون تاريخ.
5. ماركيز هيربرت، الإنسان ذو البعد الواحد' تر: جورج طرابيشي، ط4، دار الآداب للنشر، بيروت- لبنان، 2004 .
6. ولد أباه السيد ،التاريخ والحقيقة لدى ميشال فوكو، ط1، دار المنتخب العربي للنشر بيروت- لبنان، 1994.

باللغة الأجنبية

1. Marcuse - Herbert, Fin de l'utopie ,Paris, ed, Seuil.
2. Marcuse Herbert, Vers la libération au –delà de l'homme unidimensionnel, traduit de l'Anglais par Jean Baptise, Grasset, Paris, ed, Minuit, 1969.
3. Michel Foucault, Surveiller et punir naissance de la prison, (ed gaillimard ,1975)